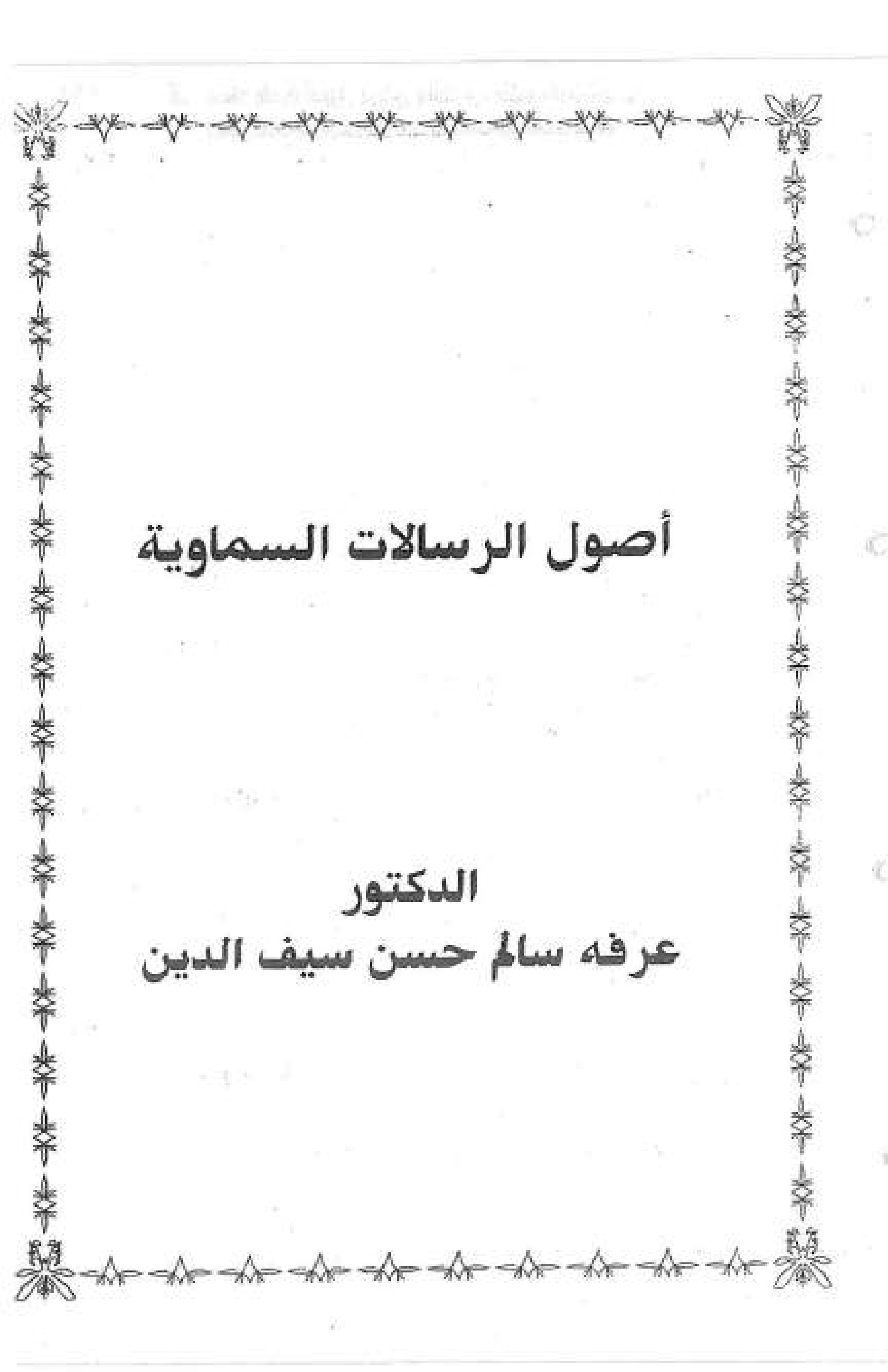


أصول الرسالات السماوية

الدكتور
عرفه سالم حسن سيف الدين

المقدمة

الحمد لله الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له القائل : (إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا * وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)(١) وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وكشف الغمة ، فجزاه الله خير ما يجزى نبيا عن أمته إلى يوم الدين وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد

فمن كرم الله تعالى وتفضله على الإنسان الذي خلقه وصوره في أحسن تقويم وأمر الملائكة بالسجود له ، ومن أجله خلق الله الكون وسخره له هذا الإنسان على الرغم من كثرة أعداده وتعدد أجناسه ، واختلاف صوره وألسنته ، وتنوع ميوله ، وتباين وظائفه ، أن جعله موحدا بفطرته ، واحداً في وظائفه ، واحداً في غايته ، وصدق الله حين يقول : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللَّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) (٢) في وظائفه وهي عمارة الكون : (.... هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا....) (٣)

---

(١) سورة الإسراء : آية رقم : ٩ .

(٢) سورة النساء : آية رقم : ١ .

(٣) سورة هود : من الآية : ٦١ .

وفى غايته ، وهى عبادة الله وحده ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾(١) .

والإنسان السوى السليم الفطرة ، النقى السريرة الذى لم تختلط به هواجس الشيطان ، ولم تسيطر عليه الشهوة الجامحة ، والهوى المنحرف ، والذى لم يستجب لعوامل الانحراف فى بيئته ومجتمعه – يهتدي لخالقه بفطرته السوية النقية ، ولكنه محتاج إلى معرفة الطريق الصحيح إلى بارئه ، وما يريده منه خالقه ، وما منهجه الذى يبتغيه منه ، وعلاقته به وبالبشرية التى يتعامل معها ، وبالكون الذى خلق له ... ؟

ولكن الإنسان أحيانا تسيطر عليه الشهوة الجامحة وتحيط به التقاليد الشيطانية فيقع فريسة لها ويتبع هواه ، ويستجيب لأعراف البيئة الخاطئة وتقاليد المجتمع البالية ،ويخضع لأمر حاكمه الذى يدعى أنه إلهه فيَضِل ويُضِلُّ فكان من رحمة الله تعالى على البشرية – على الرغم من وجود العقل أن أرسل الله للناس ، وأنزل على الرسل الكتب ليبينوا لمن اهتدى بفطرته الطريق المستقيم ويوضحوا لهم منهج الله المراد منهم تحقيقه ويبينوا للآخرين فى الوقت نفسه – خطأ ما هم عليه من تقاليد مبتدعه وتصورات باطله واضعين أمامهم البديل عنها . قال تعالى ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (٢)

وهؤلاء الرسل الكرام رغم كثرة عددهم – صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين – إلا أن الرسالة واحدة وإن كثروا . والوظيفة واحدة ، وهى تبليغ الناس دعوة الله لإخراجهم من ظلمات التقاليد المنحرفة فى

(١) سورة الذاريات : آية رقم : ٥٦ .

(٢) سورة النساء : آية رقم : ١٦٥.

العقيدة والشريعة والأخلاق ، إلى نور منهج الله قال تعالى : (الٓر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) (١) والغاية من ذلك كله (.... اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ...) (٢)

ومادام الخالق سبحانه وتعالى واحدا ودينه واحد ، وإن كثر الداعون إليه فلابد – بداهة – أن تكون أصول المنهج واحدة ، وإن اختلفت الشرائع وتعددت الوسائل للدعوة إليه ونشرها ، قال تعالى : (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) (٣) وقال تعالى : (لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا)(٤) فقاموا صلوات الله عليهم أجمعين بتبليغ دعوة الله إلى خالقهم كما أمرهم ربهم وكما كلفهم به .

والواقع أن تاريخ الرسل وموكب الرسالات السماوية والدعوات الإلهية ما هو إلا تاريخ للمواجهة الدائمة بين الحق والباطل . مواجهة بين منهج السماء والتقليد الوضعية المبتدعة البالية .

فمن البشرية من استجاب لمنهج السماء ، تاركا وراءه تقاليده الوضعية التى أسيرلها ، والبعض الآخر ألغى عقله وركب رأسه فادعى الألوهية (كفرعون) ... وتبعه فى ذلك الإعتقاد قومه فسلموا أنفسهم له ، وتمسكوا بما تمليه عليهم إرادته وجبروته ،وطغيانه قال تعالى : (إِنَّ

---

(١) سورة إبراهيم : آية رقم : ١ .

(٢) سورة هود : من الآية : ٨٤ .

(٣) سورة البقرة : آية رقم : ٢٨٥ .

(٤) سورة المائدة : بعض آية : ٤٨ .

فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) (١) .

ومن هنا أرسل الله الأنبياء - عليهم السلام - ليضيئوا للناس الطريق الذي يوصلهم إلى السعادة فى الدنيا والآخرة .

وكانت مهمة الرسل التى بعثوا من أجلها مهمة واحدة ، والغاية التى بعثوا من أجلها غاية واحدة . قال تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ) (٢)

إن الغاية التى بعث من أجلها الأنبياء والرسل . هى تبليغ عقيدة توحيد الله سبحانه وهداية البشرية إلى عبادة الله خالقها ورازقها ومحييها ومميتها ..

ولما كانت عبادة الله سبحانه وتعالى وكيفيتها لا تعرف إلا من المعبود ، والأنبياء والرسل هم سفراء الله إلى خلقه ، لذا جاء الأنبياء والرسل بمنهج متكامل فى الدعوة إلى الله عز وجل . وكان أعظم ما أسند إلى الأنبياء والرسل – عليهم السلام – هو :

١ – الدعوة إلى التوحيد المطلق لله رب العالمين . فما من نبى ولا رسول إلا ودعا قومه إلى توحيد الله عز وجل . وحذرهم من الشرك والكفر قال تعالى مخاطبا رسوله : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ) (٣) . وقال أيضا : (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ...) (٤)

---

(١) سورة القصص : بعض آية : ٤
(٢) سورة الأنبياء : آية رقم : ٢٥ .
(٣) سورة الأنبياء : آية رقم : ٢٥
(٤) سورة النحل : بعض آية : ٣٦ .

وتوحيد الله عز وجل يتطلب الإيمان به وملائكته وكتبه ورسله قال تعالى : (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ) (١)

٢ – الإيمان باليوم الآخر وما فيه من بعث وحساب وجنة ونار وثواب وعقاب ، وهو أكبر البواعث بعد الإيمان بالله ومعرفته على اتباع ما شرع الله من امر ونهى قال تعالى : (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ) (٢) .

٣ – بيان الشريعة التى أمر الله بها من صلاة وصيام وزكاة وحج... الخ .

٤ – بيان الأخلاق التى يتبعها الناس فى حياتهم سواء مع الله ام مع انفسهم ام مع الناس . وقد بين القرآن الكريم هذا المنهج الواضح الذى جاء به الأنبياء والرسل فى هذه الوصية الجامعة التى جاءت موعظة حسنة وإرشادا وتوجيها من لقمان . قال تعالى : (وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) (٣) ولما كانت البشرية فى أمس الحاجة إلى هداية الرسل والأنبياء . فقد اقتضت الحكمة الإلهية أن ترسل فى كل امة نذيرا ليرسم لهم الطريق السوى الى الله سبحانه وتعالى وليدلهم على سعادتهم فى الدنيا والآخرة ولئلا يحتج الضالون فيقولون :

ما جاءنا من بشير ولا نذير والقرآن الكريم صور لنا هذه الحقيقة فى قوله تعالى : (رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ

---

(١) سورة البقرة : بعض آية رقم : ٢٨٥ .

(٢) سورة المؤمنون : آية رقم : ١١٥ .

(٣) سورة لقمان : آية رقم : ١٣ .

حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) (١) وقال أيضا : (وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خلا فِيهَا نَذِيرٌ) (٢) وقد بعث الله إلى الناس أنبياء ورسلا منهم من قص الله سيرتهم على نبيه محمد (ﷺ) ، ومنهم من لم يقصص . قال تعالى : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ) (٣) . وكان مجموع من قص الله من النبين والمرسلين خمسة وعشرين . وقد جاء ذكرهم في قول الناظم :

في تلك حجتنا منهم ثمانية
من بعد عشر ويبقى سبعة وهمو
ادريس . هود . شعيب . صالح . وكذا
ذو الكفلى . آدم بالمختار قدختموا (٤)

والمراد بقوله تعالى في تلك حجتنا الآيات من سورة الأنعام . قال تعالى : (وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ) (٥) فقد جاء في هذه الآية ذكر ثمانية عشر رسولا . أما باقي الخمسة والعشرين فهم :

(١) سورة النساء : آية رقم : ١٦٥.
(٢) سورة فاطر : آية رقم : ٢٤ .
(٣) سورة غافر : بعض آية : ٧٨ .
(٤) دعوة الرسل إلى الله تعالى غايتها وتاركها : ت د / محمد رجب الشتيوى : ص ١٢ بتصرف يسير : ١٤٠٦ - ١٩٨٦ ط/١ - الناشر مؤسسة سعيد للطباعة .
(٥) سورة الأنعام : آية رقم : ٨٣-٨٦

آدم . ادريس . هود . صالح . شعيب . ذو الكفلى . خاتم النبين محمد (ﷺ) فالذين أخبرنا الله بأسمائهم فى كتابه وأخبرنا بهم رسوله صلى الله عليه وسلم لا يجوز أن تكذب بهم ومع ذلك فنؤمن أن لله رسلا وانبياء لانعلمهم قال تعالى : (وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ) (١) فالإيمان بالرسل أصل من أصول الإيمان : قال تعالى : (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا...) (٢) وقال تعالى : (قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) (٣) ومن كفر بالرسل وهو يزعم انه يؤمن بالله فهو عند الله كافر لا ينفع إيمانه قال تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً * أُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً)(٤) ومن كفر بنبى من الأنبياء فقد كفر بسائر الأنبياء . لأن الإيمان واجب بكل نبى بعثه الله إلى أهل الأرض ، ومن رد نبوة نبى لسبب من الأسباب فقد رد إيمانه وكان كافرا . (٥) لأن الله فرض على الناس أن يعبدوه بما شرعه على ألسنة رسله ، فإذا جحدوا الرسل ردوا عليهم شرائعهم . ولم يقبلوها منهم . فكانوا ممتنعين من التزام العبودية التى

---

(١) سورة النساء : بعض اية رقم : ١٦٤ .

(٢) سورة البقرة : بعض آية رقم : ٢٥٨ .

(٣) سورة آل عمران : آية رقم : ٨٤ .

(٤) سورة النساء : آية رقم : ١٥٠ – ١٥١ .

(٥) المصدر السابق ص ١٣ – ١٤ بتصرف يسير .

امروا بالتزامها . فكان ذلك كجحود الصانع سبحانه . وجحود الصانع كفر لما فيه من ترك التزام الطاعة والعبودية .

أما الإيمان الصحيح فهو كما بينت الآية القرءانية (وَالَّذِينَ آمَنُواْ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا) (١) وفي هذا البحث دراسة لموضوع (أصول الرسالات السماوية) ويشتمل على ما يلي :

أولا : توحيد الله عز وجل .

ثانيا : ضرورة الرسالة واثباتها .

ثالثا : اثبات البعث .

رابعا : اثبات أصول العبادات .

خامسا : الإهتمام بمكارم الاخلاق .

سادسا : النتيجة .

(١) سورة النساء : آية رقم : ١٥٢ .

أصول الرسالات السماوية

من رحمة الله سبحانه وتعالى بخلقه ، أن رسم لهم سبيل السعادة فى دنياهم ، وفى أخراهم ، وهو طريق لا إستحالة فيه . لقد جربه الكثيرون ففازوا بحياة هنيئة فى الدنيا والآخرة قال تعالى : (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) [1] هذه السعادة تتحقق للفرد وللأسرة إذا اتبعوا ما اشترطه الله عليهم .

ولقد وضع القرآن الكريم شروطا لهذه السعادة . فيما بينه من قوانين تتعلق بالحياة السلوكية للفرد والأسرة والجماعة .

لقد بينهما الوحى بالتعبير الالهى فى دقته وروعته وجلاله وبينها الرسول (ﷺ) فى تطبيق واضح وسلوك نقى وسنة مطهرة . لقد ظهرت الدعوة الإسلامية فى مجتمع تعج فيه الآراء الدينية والتقاليد البشرية فكانت الدعوة هى البلسم الشافى . إنه فى الأونة التى كانت الآراء الدينية تتصارع فى جزيرة العرب قبل الإسلام . قام رسول الله (ﷺ) بدعوته وهى دعوة ربانيه لم تنشأ عن تفكير إنسانى شخصي . ولكنها وحى الله المعصوم وهى معصومة عن ضلالات الأوهام . ومتاهات الخيال. وانزلاق التفكير واساس هذه الدعوة هو القرآن الكريم إنه حبل الله المتين ونور المبين .

والدعوة الإسلامية بهذا القرآن الكريم تحمل فى طياتها قيمتها الذاتية وذلك سر انتشارها وسيادتها إنها تمتاز عن النصرانية المنتشرة إذ ذاك بنظام اقتصادى خلت منه الأنانية وبمنطق عقلى لا يوجد فيما كان من مأثور حينذاك من الكلام الذى نسب للمسيح عليه السلام . ثم هى تصحيح للفكرة الدينية جملة وهى كذلك تمتاز عن اليهودية بما فيها البساطة والمرونة وتنزيه الله ورسله وأنبيائه جميعا . إنها معصومة لأنها

---

(١) سورة النحل : آية (٩٧) .

وحى الله . وليست رأيا يجوز مناقشته أو تعديله . وهى دعوة موحدة لا مفرقه إنها دعوة نوح وابراهيم وموسى وعيسى عليه السلام من قبل . فهى موحدة تقرر أصولاً فى ناحية العقيدة وشعائر العبادة والاخلاق (١)

والذى لا جدال فيه أن الرسل صلوات الله عليهم اجمعين . هم أول من حمل لواء الجهاد فى الحياة ليضعوا فيها أسس النظام القائم على المنهج الإلهى الذى شرعه لهم . قال تعالى : (شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاء وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ) (٢) .

هذه الآية تقرر أن ما شرعه الله للمسلمين هو فى عمومه ماوصى به نوحا وابراهيم وموسى وعيسى . وهو أن يقيموا دين الله الواحد ولا يتفرقوا فيه . ويترتب عليها نتائجها من وجوب الثبات على المنهج الإلهى القديم ومن هيمنة هذا الدين الواضح المستقيم . ودحض حجج الذين يحاجون فى الله وانذارهم بالغضب والعذاب الشديد وفى هذه الآية أيضا يقرر الله تعالى حقيقة الأصل الواحد والنشأة الضاربة فى أصول الزمان ويضيف اليها لمحة لطيفة الوقع فى حس المؤمن . وهو ينظر الى سلفه فى الطريق الممتد من البعيد فإذا هم على التتابع هؤلاء الكرام – نوح – وابراهيم – وموسى – وعيسى – ومحمد (ﷺ) ويستشعر أنه إمتداد لهؤلاء الكرام وانه على دربهم يسير . إنه سيشق الطريق مهما يجد فيه من شوك ونصب وحرمان من أعراض الدنيا الزائلة وهو برفقة هذا الموكب الكريم على الله سبحانه . الكريم على الكون كله منذ فجر التاريخ (٣) وإذا كان الذى شرعه الله سبحانه وتعالى من الدين للمسلمين

---

(١) فى ظلال القرآن : سيد قطب : م ٥ ج ٢٥ – ص ٣١٤٧ .

(٢) سورة الشورى : بعض آية رقم : ١٣ .

(٣) فى ظلال القرآن : سيد قطب – م ٥ ج ٢٥ – ص ٣١٤٧ .

هو ماوصى به نوحا وابراهيم وموسى وعيسى ففيم يتقاتل اتباع موسى واتباع عيسى ؟ وفيم يتقاتل أصحاب المواهب المختلفة من أتباع عيسى وفيم يتقاتل اتباع موسى وعيسى مع أتباع محمد ؟ وفيم يتقاتل من يزعمون انهم على ملة ابراهيم من المشركين مع مسلمين ؟ ولم لا ينضم الجميع ليقفوا تحت الرية الواحدة للجميع (أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) فيقيموا الدين ويقوموا بتكاليفه ولا ينحرفوا عنه ولا يلقوا به بل يقفوا تحت رايته صفا واحدا وهى راية واحدة رفعها على التوالى نوح وابراهيم وموسى وعيسى - صلوات الله عليهم - حتى انتهت الى محمد (ﷺ) فى العهد الأخير ولكن المشركين فى أم القرى ومن حولها وهم يزعمون انهم على ملة ابراهيم كانوا يقفون من الدعوة القديمة والجديدة وقفا آخر قال تعالى : (كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ) (١) كبر عليهم أن يتنزل الوحى على محمد من بينهم وكانوا يريدون أن يتنزل على رجل من القريتين عظيم) .

ولذلك نجد أن الله سبحانه وتعالى أشار بذلك فى قوله تعالى : (وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) (٢) أى

(١) سورة الشورى : آية رقم : ١٣ .

(٢) هذه شبهة لكفار قريش وذلك انهم ظنوا أن الفضيلة فى المال والجاه الدنيوى فقالوا : (لولا نزل هذا القرآن) (على رجل من القريتين) اى من إحداهما يعنون مكة أو الطائف - قال المفسرون : الذى بمكة هو الوليد بن المغيرة ، والذى بالطائف هو عروة بن مسعود الثقفى ، ومنهم من قال غير ذلك ، وارادوا بعظم الرجال رياسته وتقدمه فى الدنيا ، فالزمهم ربهم بأجوبة أولها : قوله على سبيل الانكار (أهم يقسمون رحمة ربك) أى النبوة فيضعوها حيث يشاءوا (نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا) أى خدما وتابعا وعلوكا ، واللام لام العاقبه ، فالانسان خلق مدنيا بطبعه وثانيها : قوله (ورحمة ربك خير مما يجمعون) لأن الدنيا منقضية فانية ودين الله وما تتبعه من السعادات باقى لا يزول ، فكيف يجعل العاقل ما هو الأخس أفضل مما هو الأشرف ؟ =

صاحب سلطان من كبرائهم ولم تكن صفات محمد الذاتية وهو بإقرارهم الصادق الأمين ولا كان نسبه وهو من أوسط بيت في قريش ما كان هذا كله يعدل في نظرهم أن يكون سيد قبيلة ذا سلطان ، وكبر عليهم ان ينتهى سلطانهم الدينى بإنتهاء عهد الوثنية والأصنام ... التى تقوم عليها مصالحهم الإقتصادية والشخصية فتشبسوا بالشرك ، وكبر عليهم التوحيد الخالص الواضح الذى دعاهم اليه الرسول الكريم ... وكبر عليهم أن يقال إن آباءهم الذين ماتوا على الشرك ماتوا على ضلالة وعلى جاهلية فتنبوا بالحماقة وأخذتهم العزة بالإثم واختاروا ان يلقوا بأنفسهم فى الجحيم على أن يوصى آباؤهم وأنهم ماتوا ضالين – والقرآن يعقب على موقفهم هذا بأن الله هو الذى يصطفى ويختار من يشاء وأنه كذلك يهدى اليه من يرغب فى كنفه ويثوب إلى ظله من الشاردين يقول تعالى : (اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ)(١) وقد اجتبى محمداً (ﷺ) للرسالة وهو يفتح الطريق لمن ينيب إليه ويثوب (٢) وقد اقتضى منهج الرسل أن تحمل معه عدالة الله وان عدها باشعاعات توضح لها الحق من الباطل والظلم من العدل والخير من الشر والهدى من الضلال والظلمات من النور وأن تحمل هذه الاشعاعات الرسل حتى لا يكون للبشرية حجة يتلمسونها أو عذر يحتجون به قال تعالى : (وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً) (٣) كما استطرد سياق الآية قبل ذلك فى مواجهة أهل الكتاب واليهود منهم على وجه الخصوص وموقفهم من رسالة محمد (ﷺ) وزعمهم أن الله لم يرسل محمداً وتفريقهم بين الرسل

= (غرائب القرآن ورغائب الفرقان : ت نظام الدين الحسن بن محمد بن الحسين القمى النيسابورى - – ج٢٥ – ص ٤٩ ، وراجع ايضا تفسيرا بن كثير – ج٤ – ص ١٢٦-١٢٧ ، وراجع تفسير القرطبى : ج٩ – ص ٦١٢٨ .

(١) سورة الشورى : بعض آية : ١٣ .

(٢) المصدر السابق نفسه – ص ٦١٤٨ .

(٣) سورة النساء : آية رقم : ١٦٥ .

وتعنتهم وهم يطلبون أمارة وهذه الآية تقرر أن الوحى للرسول ليس بدعا وليس غريبا فهو سنة الله فى إرسال الرسل جميعا من عهد نوح الى محمد (ﷺ) وكلهم رسل أرسلوا للتبشير والانذار . اقتضت هذا رحمة الله بعباده وأخذه الحجة عليهم وإنذاره لهم قبل يوم الحساب وكلهم جاءوا بوحى واحد لهدف واحد .

فالتفرقة بينهم تعنت لا تستند إلى دليل وإذا أنكروا . وتعنتوا فإن الله يشهد وكفى به شهيداً و الملائكة يشهدون (١) قال تعالى : (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً * وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا) (٢) يقول الإمام القاسى : اعلم انه تعالى لما حكى ان اليهود سالوا رسول الله (ﷺ) ان ينزل عليهم كتابا من السماء، وذكر تعالى بعده أنهم لا يسألون استرشادا ولكن للتعنت واللجاج وبين أنواعا من فضائحهم اشار إلى رد شبهتهم فاحتج عليهم أنهم ليس بدعا من الرسل وأمره فى الوحى كسائر الانبياء الذين يوافقون على نبوتهم ولم ينزل على كل واحد منهم كتاب بتمامه مثل ما انزل على موسى وإذا لم يكن هذا من شرط النبوة وضح ان سؤالهم محض تعنت ، ثم يسترسل الامام فيقول بدأ بنوح لانه أول نبى شرع الله تعالى على لسانه الأحكام ، والحلال والحرام وبدأ به تهديدا لهم ، لأنه اول نبى عوقب قومه ، لا أنه أول مشرع كما توهم وظاهر الآية يدل على أن من قبل نوح لم يكن يوحى له كما أوحى لنبينا (ﷺ) لا أنه غير موحى إليه أصلا ، كما قيل (وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وهم أولاد يعقوب عليهم السلام – وعيسى وايوب ويونس

(١) المصدر السابق : ص ٨٠٤ ، بتصرف يسير .

(٢) سورة النساء : آية رقم : ١٦٣ – ١٦٤ .

وهارون وسليمان واتينا داود زبورا) (١) ﴿وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾(٢)

يقول ابن كثير : وهذه تسمية الأنبياء الذين نص على اسمائهم فى القرآن وهم ادم وادريس ونوح وهود وصالح وابراهيم ولوط واسماعيل واسحاق ويعقوب ويوسف وايوب وشعيب وموسى وهارون ويونس وداود وسليمان والياس واليسع وزكريا ويحيى وعيسى وكذا ذو الكفل عند كثير من المفسرين وسيدهم محمد (ﷺ) وقوله : (ورسلا لم نقصصهم عليك) أى خلقا آخرين لم يذكروا فى القرآن ، وقد اختلف فى عدد الأنبياء والمرسلين والمشهور فى ذلك حديث ابى ذر الطويل وذلك فيما رواه ابن مردويه رحمه الله فى تفسيره ... بسنده عن ابى ذر قال : قلت يا رسول الله كم الأنبياء ؟ قال : (مائة الف واربعة وعشرون الفا) قلت يا رسول اله كم الرسل ؟ منهم من قال (ثلاث مائة وثلاثة عشر جم غفير) قلت يا رسول الله من كان اولهم ؟ قال : (ادم) قلت يا رسول الله نبى مرسل قال : (نعم خلقه الله بيده ثم نفخ فيه من روحه ، ثم سواه ثم قال يا أبا ذر اربعة سريانيون ادم وشيث ونوح واخنوخ وهو ادريس ، وهو أول من خط بالقلم ، وأربعة من العرب هود وصالح وشعيب ونبيك يا أبا ذر ، وأول نبى من بني اسرائيل موسى واخرهم عيسى وأول النبين ادم وآخرهم نبيك) (٣) ﴿رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (٤) أى أرسلنا أولئك الرسل

(١) تفسير القاسمى : المسمى محاسن التأويل : ت : محمد جمال الدين القاسمى – ١٢٨٣ – ١٣٣٢ هـ تعليق : محمد فؤاد عبد الباقى – ج٥ – ص ١٧٣٢ .

(٢) سورة النساء : آية رقم : ١٦٤ .

(٣) تفسير القرآن العظيم : للإمام الحافظ عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى المتوفى ٧٧٤ م – ج ١ – ص ٥٨٦ ، ٥٨٥ الناشر مكتبة الإرشاد ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠ م .

(٤) سورة النساء : آية رقم : ١٦٥ .

الذين منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك رسلا مبشرين ومن امن وعمل صالحا بالاجر العظيم ، ومنذرين من كفر وأجرم بالعذاب الاليم (إلا لجهلهم ما يجب عليهم بهدايتهم من الايمان والعمل الصالح (١) وقال تعالى : (وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى) (٢) (وكان الله عزيزا حكيما لكن الله يشهد بما أنزل اليك انزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا)

هذا استدراك على ما علم من السياق من انكارهم نبوته (ﷺ) وعدم شهادتهم بها وهى عندهم فى مرتبة المشهود به لوضوحها ولكنهم استبدلوا المباهته والمكابرة بالشهادة والايمان فسألوه ان ينزل عليهم كتابًا من السماء يثبت دعواه ويكون شاهدا له مقنعا لهم ، فبين الله تعالى له أن هذا الطلب جار على شنشنتهم فى معاملة انبيائهم من قبل ، وأن وحيه إليه هو من جنس وحيه إلى اولئك الأنبياء الذين يزعمون انهم يؤمنون بهم ويشهدون لهم ، فكأنه تعالى يقول لرسوله (ﷺ) إنهم مع أمر وضوح نبوتك فى نفسه لا يشهدون بما انزل اليك وان كانوا يشهدون لما هو من جنسه ، لكن الله يشهد لك به ، فإنه (أنزله بعلمه) أى متلبسا بعلمه الخاص الذى لم تكن تعلمه أنت ولا قومك من قبل إنزاله اليك (تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا) (٣) (مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا) (٤) (وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا

(١) تفسير المنار : تأليف السيد محمد رشيد رضا – ج ٦ – ص ٥٩ – الناشر الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣ م

(٢) سورة طه : بعض آية : ١٣٤ .

(٣) سورة هود : آية رقم : ٤٩

(٤) سورة الشورى : بعض آية : ٥٢ .

تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ) (١) فهو بما فيه من العلوم الإلهية والأدبية والسياسية والقضائية والاجتماعية ومن علوم الانبياء والرسل والامم وغير ذلك من الاسلوب البديع الذى لم يسبق إليه ولا يلحق فيه من مزج هذه العلوم بعضها ببعض مزجا دقيقا يؤلف بين ما كان موضوعه منها أعلى الموضوعات كالمسائل الإلهية ، وما كان منها أدنى كشئون الكفار والمجرمين بحيث يكون القليل من اياته كالكثير منها مؤثرا فى جذب القلوب إلى الايمان وتغذيتها بالحق والخير ، وعاله من السلطان على الارواح بهدايته وبلاغته ، وبما فيه من انباء الغيب عن الماضى والحاضر والمستقبل ، وبما فيه من التناسق والتصادق ، والسلامة من الخلاف والتعارض ، على كثرة علومه ، وتشعب فنونه ، هو بمثل هذه الخصائص والمزايا البارزة في أعلى حلل الفصاحة والبلاغة مثبت لشهادة الله تعالى به ، وبانه وحى من عنده ، لان تلك الخصائص والمزايا لا يقدر على الإتيان بها افراد العلماء الواسع الإطلاع فضلا عن امى نشا بين الاميين ووصل إلى سن الكهولة ، ولم يظهر منه شيئ مثل ذلك ، ولا بما دونه من مظاهر فصاحة قومه كالشعر والخطابة والمفاخرة فإذا كان لا يقدر على مثله من علماء الدنيا والدين وفحول البلاغة المفكرين ، تعين انه من عند الله ، فكأنه تعالى يقول لنبيه : جحود اليهود وعدم شهادتهم لك ، والله يشهد بما انزله اليك ، وانت على يقين من ذلك الوحى وقد ايد شهادته لك بعلمه الذى أودعه هذا القرآن ، فكان بذلك مثبتا لحقية نفسه وكونه انزل عليك من ربك باقوى من إثبات الدعاوى بالبينات والشهادات التى تحتمل النقص ويؤيدها كذلك يوما بعد يوم بتصديق ما انزله فى هذا القرآن من الوعد لك بالفلاح والنصر ، ووعيد من عادوك بالخزلان والخسران (والملائكة يشهدون) ايضا بذلك لان الذى نزل به اليك هو الروح الامين منهم ، أنت تراه وتتلقى عنه لا ريب عندك ذلك ، والله يؤيدك بجند منهم ينفخون روح - التثبت والسكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع إيمانهم (إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي

(١) سورة العنكبوت : اية رقم : ٤٨

مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ) (١)
وكل ذلك قد كان، وثبتت به شهادة ملائكة الله عند نبيه وعند المؤمنين بإخبار الله وما ظهر لهم من صدقها فى انفسهم (٢) (وكفى بالله شهيدا) فشهادته اصدق ، وقوله الحق : (قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهِ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ) (٣) وقال تعالى : (وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ لَهَا مُنذِرُونَ * ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ) (٤) لقد حمل هؤلاء الرسل إلى البشر رسالات ربانية من أجل وقايتهم من غوائل الشر وبعدهم عن موارد التهلكة وتحول بينهم وبين امواج الفتن وعواصف القلق وتسبغ عليهم نعم الأمن والسعادة .

وهذه هى الغاية التى التقت عندها رسالات الرسل جميعا . فهو إذن موكب يتراءى على طريق التاريخ البشرى الموصول ورسالة واحدة بهدى واحد للإنذار والتبشير موكب واحد يضم هذه الصفوة المختارة من بين البشر نوح وابراهيم واسحاق واسماعيل ويعقوب والاسباط وعيسى وايوب ويونس وهارون وسليمان وداود وموسى وغيرهم ممن قصهم الله على نبيه (ﷺ) فى القرآن ومن لم يقصصهم عليه موكب من شتى الاقوام والأجناس لا يفرقهم نسب ولا جنس ولا أرض كلهم آت من ذلك المصدر الكريم ولكهم يؤدى الإنذار والتبشير سواء منهم من جاء لعشيرة ومن جاء لقوم ومن جاء لمدينة ومن جاء لقطر ثم من جاء للناس أجمعين . محمد رسول الله (ﷺ) خاتم النبوة كلهم تلقى الوحى من الله فما جاء بشئ من عنده . وإذا كان الله قد كلم موسى تكليما . فهو لون من الوحى لا يعرف أحد كيف كان يتم ؛ لأن القرآن وهو المصدر

---

(١) سورة الانفال : بعض آية : ١٢ .

(٢) تفسير المنار : ج ٦ – ص ٦٢ – ٦٣ .

(٣) سورة الانعام : بعض آية : ١٩

(٤) سورة الشعراء : آية رقم : ٢٠٨ – ٢٠٩ .

الوحيد الصحيح الذى لا يتطرق الشك الى صحته لم يفصل لنا فى ذلك شيئا فلا نعلم الا أنه كان كلاما . ولكن ما طبيعته ؟ وكيف تم ؟ بأية حاسة أو قوة كان موسى يتلقاه ؟ كل ذلك غيب من الغيب لم يحدثنا عنه القرآن وليس وراء القرآن فى هذا الباب إلا اساطير لا تستند الى برهان (١) لقد فرق الله بين ايحائه الى النبيين وبين تكليمه لموسى قال : (إن موسى لم يسمع صوتا بل الهم معناه لم يفرق بين موسى وغيره . وقد قال تعالى : (تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ) (٢) وقال تعالى : (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاء) (٣) فقد فرق بين الإيحاء والتكليم من وراء حجاب كما كلم الله موسى فمن سوى بين هذا وهذا كان ضالا وقد قال الإمام احمد رحمه الله وغيره لم يزل الله متكلما إذا شاء وهو يتكلم بشئ بعد شئ . كما قال تعالى : (فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي يَا مُوسَى) (٤) فناده حين اتاها ولم يناده قبل ذلك . وقال تعالى : (فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَآنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ) (٥) فهو سبحانه ناداهما حين ذاقا الشجرة ولم ينادهما قل ذلك . وكذلك قال تعالى : (وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ) (٦) بعد ان خلق ادم وصوره ولم يامرهم قبل ذلك . وكذا قوله : (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ

(١) فى ظلال القرآن : ج ٢ – ص ٨٠٥ .
(٢) سورة البقرة : آية رقم : ٢٥٣ .
(٣) سورة الشورى : بعض اية : ٥٠ .
(٤) سورة طه : آية رقم : ١١ .
(٥) سورة الاعراف : آية رقم : ٢٢ .
(٦) سورة الاعراف : بعض آية : ١١ .

كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ) (١) فاخبر انه قال له كن فيكون بعد أن خلقه من تراب . ومثل هذا الخبر فى القرآن كثير . يخبر انه تكلم فى وقت معين ونادى فى وقت معين) (٢) وقد ثبت فى الصحيحين (٣) عن النبي (ﷺ) : انه لما خرج الى الصفا قرأ قوله تعالى : (ان الصفا والمروة من شعائر الله) قال : نبدأ بما بدأ الله به فاخبر ان الله بدأ بالصفا قبل المروة والسلف اتفقوا على ان كلام الله منزل غير مخلوق . منه بدأ واليه يعود (٤) هذا والرسل منهم من قص الله على رسوله ومنهم من لم يقصص اقتضت عدالة الله ورحمته ان يبعث منهم الى عباده من يبشرونهم بما أعده ولله للمؤمنين الطائعين من نعيم ورضوان وينذرونهم ما أعده الله للكافرين العصاة من جحيم ... كل ذلك لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل : ولله الحجة البالغة فى الانفس والآفاق .وقد اعطى البشر من العقل ما يتدبرون به دلائل الإيمان فى الانفس والآفاق ... وكان الله عزيزا حكيما .. عزيزا قادرا على أخذ العباد بما كسبوا حكيما يدبر الأمر كله بالحكمة ويضع كل امر فى نصابه والقدرة والحكمة لهما عملهما فيما قدره الله فى هذا الامر وارتضاه ونقف عند قوله تعالى : (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل)

أمام حشد من الإيحاءات اللطيفة العميقة على سبيل الإيجاز ثلاث وقفات :

---

(١) سورة آل عمران : آية رقم : ٥٩ .

(٢) تفسير القاسمي : ج ٥ – ص ١٧٣٢ .

(٣) صحيح الإمام مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيرى النيسابورى ابو الحسين حافظ بشرح النووى : للإمام مسلم يحيى بن شرف بن مرى حسن بن حسين بن حزام النووى الشافعى ابو زكريا محى الدين تحقيق واشراف عبد الله احمد ابو زيته المجلد الثالث ص ٣٣٦ كتاب الحج – باب حجة النبى (ﷺ) حديث رقم ١٣١ وهى قطعة من حديث جابر الطويل فى صفة الحجة النبوية ولم يخرجه البخارى .

(٤) المصدر السابق : ج ٥ ص ١٧٣٢ .

نقف منها أولاً : أمام قيمة العقل البشري ووظيفته ودوره فى أخطر قضايا الإنسان قضية الإيمان بالله التى تقوم عليها حياته فى الأرض من جذورها بكل مقوماتها واتجاهاتها وواقعياتها وتصرفاتها كما يقوم عليها مآله فى الآخرة لو كان الله سبحانه – وهو أعلم بالإنسان وطاقاته كلها يعلم أن العقل البشرى الذى وهبه للإنسان هو حسب هذا الإنسان في بلوغه الهدي لنفسه والمصلحة لحياته فى دنياه وآخرته . لو وكله إلى هذا العقل وحده يبحث عن دلائل الهدى وموحيات الإيمان فى الأنفس والآفاق ورسم لنفسه كذلك المنهج الذى تقوم عليه حياته فتستقيم على الحق والصواب ولما ارسل إليه الرسل على مدى التاريخ ولما جعل حجته على عباده هي رسالة الرسل إليهم وتبليغهم عن ربهم ولما جعل الناس حجة عنده سبحانه هي عدم مجئ الرسل إليهم (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) ولكن لما علم الله أن العقل الذى أتاه للإنسان أداة قاصرة بذاتها عن الوصول إلى الهدى بغير توجيه من الرسالة وقاصرة كذلك عن رسم منهج للحياة الإنسانية يحقق المصلحة لهذه الحياة لهذا اقتضت حكمته سبحانه أن يبعث للناس الرسل والا يؤاخذ الناس إلا بعد الرسالة والتبليغ قال تعالى (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً) (١) وهذه تكاد إحدى البديهيات التى تبرز من هذا النص القرآنى ... فإن لم تكن بديهية فهى إحدى المقتضيات الحتمية .

إذن ما هى وظيفة هذا العقل البشرى وما هو دوره فى قضية الإيمان والهدى وفى قضية منهج الحياة ونظامها ؟ إن دور هذا العقل أن يتلقى عن الرسالة ووظيفته أن يفهم ما يتلقاه عن الرسول ومهمة الرسول أن يبلغ ويبين ويستنقذ الفطرة الإنسانية مما يرين عليها من الركام وينبه العقل الإنسانى الى تدبر دلائل الهدى وموحيات الايمان فى الانفس والآفاق وأن يرسم له منهج التلقى الصحيح ومنهج النظر

---

(١) سورة الإسراء : آية رقم : ١٥ .

الـ حيح وأن يقيم له القاعدة التى ينهض عليها منهج الحياة العملية المؤدى إلى خير الدنيا والآخرة .

وليس دور العقل أن يكون حاكما على الدين ومقرراته من حيث الصحة والبطلان والقبول أو الرفض – بعد أن يتأكد من صحة صدورها عن الله وبعد أن يفهم المقصود بها اى المدلولات اللغوية والاصطلاحية للنص – ولو كان له أن يقبلها أو يرفضها – بعد ادراك مدلولها لأنه لا يوافق على هذا المدلول او لا يريد ان يستجيب له مايستحق العقاب من الله على الكفر بعد الايمان ... فهو اذن ملزم بقبول مقررات الدين متى وصلت اليه عن طريق صحيح ومتى فهم عقله ما المقصود بها وما المراد منها ؟ إن هذه الرسالة تخاطب العقل بمعنى أنها توقظه وتوجهه وتقيم له منهج النظر الصحيح ... لا بمعنى انه هو الذى يحكم بصحتها أو بطلانها وبقبولها أو رفضها ومتى ثبت النص كان هو الحكم وكان على العقل البشرى أن يقبله ويطيعه وينفذه سواء أكان مدلوله مالوفا أو غريبا عليه .

إن دور العقل فى هذا الصدد – هو أن يفهم ما الذى يعنيه النص وما مدلوله الذى يعطيه حسب معانى العبارة فى اللغة والاصطلاح وعند هذا الحد ينتهى دوره ...

إن العقل ليس إلها ليحاكم بمقررات الخاصة مقررات الله ، إن له أن يعارض مفهوما عقليا بشريا للنص مفهوم عقلى بشرى آخر . هذا مجاله ولا حرج عليه فى هذا ولا حجر ما دام هنالك من الأصول الصحيحة مجال للتأويل والإفهام المتعددة وليس هنالك من هيئة ولا سلطة ولا شخص يملك الحجر على العقل فى إدراك المقصود بالنص الصحيح واوجه تطبيقه – متى كان قابلا لاوجه الرأى المتعددة .

الوقفة الثانية : إرسال الله الرسل حجة على عباده يوم القيامة : (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) وقفة اخرى

نقف منها أمام التبعة العظيمة الملقاة على الرسل – صلوات الله عليهم ومن بعدهم على المؤمنين برسالاتهم – تجاه البشرية كلها هي تبعة ثقيلة بمقدار ما هي عظيمة .

إن مصائر البشرية كلها في الدنيا وفي الآخرة سواء منوطة بالرسل وبأتباعهم من بعدهم . فعلى أساس تبليغهم هذا الأمر للبشر تقوم سعادة هؤلاء البشر أو شقوتهم ويترتب ثوابهم أو عقابهم في الدنيا والآخرة ، إنه أمر هائل عظيم ... ولكنه كذلك ... ومن ثم كانوا صلوات الله عليهم – يحسون بجسامة ما يكلفون وكان الله سبحانه وتعالى – يبصرهم بحقيقة العبء الذي ينوط بهم .... وهذا هو الذي يقول الله عنه لنبيه : (إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً) (١) ويعلمه كيف يتهيأ له ويستعد: (يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً * نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً * إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً * إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً * وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً) (٢)

وهذا هو الذي يشعر به نبيه (ﷺ) وهو يأمره أن يقول وأن يستشعر حقيقة ما يقول : (قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا * إِلاَّ بَلاَغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالاَتِهِ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا) (٣)

---

(١) سورة المزمل : آية رقم : ٥ .

(٢) سورة المزمل : آية رقم : ١ – ٨ .

(٣) سورة الجن : آية رقم : ٢٢ ، ٢٣ .

ويقول : ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا * لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ (١)

إنه الأمر الهائل العظيم ... امر هذه البشرية التى إما تبلغ اليها الرسالة فتقبلها بقبول حسن وتتبعها وتسير على منهجها قولا وعملا فتسعد فى الدنيا والاخرة وإما أن تبلغ اليها فترفضها وتنبذها فيكون مصيرها الشقاء فى الدنيا والعذاب فى الآخرة ، وإما الا تبلغ اليها فتكون لها الحجة على ربها وتكون تبعة شقائها فى الدنيا وضلالها معلقة بعنق من كلف ، فلم يبلغ فأما رسل الله – عليهم السلام – فقد ادوا الأمانة وبلغوا الرسالة على الوجه الاكمل ومضوا الى ربهم خالصين من هذا الالتزام والمسؤلية الثقيلة ، وهم لم يبلغوها دعوة باللسان ، ولكن بلغوها مع هذا قدوة ممثلة فى العمل والجهاد ليلاً ونهارا من اجل إزالة العقبات والعوائق سواء اكانت هذه العقبات والعوائق شبهات تحاك وضلالات تزين او كانت قوة طاغية تصد الناس عن قبول منهج الله عز وجل كما فعل ذلك رسول الله (ﷺ) خاتم النبيين ، فلم يكتف بإزالة العوائق باللسان وإنما أزالها كذلك بالسيف ﴿حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ (٢)

الوقفة الثالثة : مسؤلية تبليغ الدعوة تقع على من بعد رسول الله (ﷺ) :

إنتقل الواجب بعد ذلك إلى من حمل من بعده الرسالة وهم المؤمنون بها حقا ... فهناك أجيال تلو أجيال جاءت وتجيئ بعده (ﷺ) وتبلغ هذه الأجيال الرسالة من بعده ، ولافكاك لهم من المسئولية – مسئولية إقامة حجة الله على الناس . ومسئولية إنقاذ الناس من عذاب

(١) سورة الجن : اية رقم : ٢٦ – ٢٨ .

(٢) سورة البقرة : بعض اية : ١٩٣ .

الاخرة وشقوة الدنيا إلا بالتبليغ والاداء على نمط المنهج الذى بلغ به الداعية الأول سيدنا محمد (ﷺ) فالرسالة هى الرسالة والناس هم الناس ، وهناك ضلالات وأهواء وشهوات . وهناك قوة طاغية تقوم دون الناس ودون تبليغ الدعوة وتفتنهم عن دين الله والموقف هو الموقف والعقبات هي العقبات ، ولكن لابد من تبليغ منهج الله بالبيان والحجة وبالحمل حتى يكون المبلغون لمنهج الله ترجمة حية واقعة عن يبلغون وايضا لابد من ازالة العقبات التي تعترض طريق الدعوة والدعاة ، هذا هو الامر المفروض الذي لا صلة فى النكوص عن حمله وإلا فهم المسئولون عن ضلال البشرية كلها وشقوتها فى هذه الحياة وعدم قيام حجة الله عليها فى الآخرة .... فمن ذا الذى يستهين بهذه المسؤلية ؟

وهى تقصم الظهر وترعد الفرائص وتهز المفاصل إن الذى يقول: - إنه مسلم - إما أن يبلغ ويؤدى منهج الله هكذا والا فلا نجاه له فى الدنيا ولا فى الاخرة ، إنه حين يقول : إنه مسلم - ثم لا يبلغ هذا المنهج ولا يؤدى كل الوان البلاغ والأداء هذه إنما يؤدي شهادة ضد الإسلام الذى يدعيه بدلا من أداء شهادة له تحقق فيه قوله تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (١)

وتبدأ شهادته للإسلام من أن يكون هو بذاته ثم بعائلته ثم بعشيرته صورة واقعية للإسلام قولا وعملا وبذلك يكون ادى شهادته للاسلام ويؤدى كذلك شهادته للاسلام عن طريق قيامه بدعوة الامة بعد دعوة الاسرة ومن على شاكلتها الى تحقيق الاسلام فى حياتها كلها ... وتنتهى شهادته بالجهاد لإزالة العقبات التى تضل الناس ... فإذا إستشهد فى هذا فهو إذا - شهد - أدى شهادته لدينه ومضى إلى ربه ... وهذا وحده هو الشهيد

(١) سورة البقرة : بعض آية : ١٤٣ .

بعد الحديث عن الإيماءات التى أشارت إليها هذه الآية (رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ)(١) نمضى فى تفسير بقية هذه الآية وهو قوله : (لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلآئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً) (٢)

شهادة الله والملائكة على رسالة محمد (ﷺ) :

فإذا أنكر أهل الكتاب هذه الرسالة المحمدية – وهى جارية على سنة الله فى إرسال الرسل لعباده (رسلا مبشرين ومنذرين)

وأهل الكتاب يعترفون بالرسل قبل محمد (ﷺ) اليهود يعترفون بمن قبل عيسى – عليه السلام – والنصارى يعترفون بعيسى الذى ألهوه ...

فإذا نقلوا ذلك فلا عليك منهم فلينكروا : (لكن الله يشهد بما أنزل اليك انزله بعلمه ... والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا . وفى هذه الشهادة من الله ثم من الملائكة . ومنهم من حملها إلى رسوله ... اسقاط لكل ما يقوله أهل الكتاب والله يشهد والملائكة يشهدون وشهادة الله وحدها فيها الكفاية . وفى هذه الشهادة تسرية عن الرسول (ﷺ) وما يلقاه من كيد اليهود وعنتهم . وفيها كذلك تصديق وتطمين للمسلمين فى اول عهدهم بالإسلام بالمدينة – أمام حملة اليهود التى تدل على ضخامتها هذه الحجج القرآنية المنوعة الأساليب فى ردها والقضاء عليها (٣) ولو قدر للبشر أن يطيعوا على الهداية فلا يعصو الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون – لكانت حياتهم أشبه بحياة الملائكة .

---

(١) سورة النساء : آية رقم : ١٦٥ .

(٢) سورة النساء : آية رقم : ١٦٦ .

(٣) فى ظلال القرآن : سيد قطب – ص ٨٠٤ وما بعدها بتصرف م . ج ٢ – دار الشروق ...

وفى كلتا الحالتين لا يكون للحياة لذة ولا سعادة وكانت العقول عبثا وجزافا لا جدوى من وجودها ولكن اقتضت إرادة الله ان يخلق البشر ليكونوا خلفاءه فى الأرض ... ومنحهم العقول – كما أشرت من قبل – لتكون أداة تفكير فى شئون حياتهم وبعث الرسل لتكون حجة عليهم يوم القيامة ومرحلة اختبار لما قال تعالى : (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) (١)

يقول صاحب تفسير المنار (٢) فى تفسير هذه الآية : (ولكن ليبلوكم فيما آتاكم) أى ولكن يشأ ذلك بل جعلكم نوعا ممتازا يرتقى فى أطوار الحياة بالتدريج وعلى سنة الارتقاء ، فلا تصلح له شريعة واحدة فى كل طور من أطوار حياته ، فى جميع اقوامه وجماعاته ، وأتاكم من الشرائع والمناهج فى الفهم والهداية فى طور طفولية النوع وغلبة المادية عليه ما يصلح له ... حتى إذا ما بلغ النوع سن الرشد ومستوى استقلال العقل بظهور ذلك فى بعض الأقوام بالقوة وفى بعضها بالفعل، ختم له الشرائع والمناهج بالشريعة المحمدية المبنية على أصل الإجتهاد ، وجعل أمره فى القضاء والسياسة والإجتماع ، شورى بين أولى الأمر ، من أهل المكانة والعلم والرأى (ليبلوكم) اى ليعاملكم بذلك معاملة المختبر لإستعدادكم (فيما أتاكم) أى أعطاكم من الشرائع والمناهج ، فتظهر حكمته فى تمييزكم على غيركم من أنواع الخلق فى ارضكم ، هو كونكم جامعين بين الحيوانية والملائكية .

يظهر مثال ما حققناه فى الشرائع والمناهج الاخيرة – اليهودية والنصرانية والإسلامية – فاليهودية شريعة مبنية على الشدة فى تربية

---

(١) سورة المائدة : آية رقم : ٤٨ .

(٢) تفسير المنار : ج٦ – ص ٣٤٦ وما بعدها باختصار .

قوم ألفوا العبودية والذل وفقدوا الإستقلال فى الإرداة والرأى ، فهى مادية جسدية شديدة ليس لأهلها فيها رأى ولا إجتهاد ...

والمسيحية يهودية من جهة وروحانية شديدة من جهة أخرى ، فهى تأمر أهلها بأن يسلموا أمورهم الجسدية والإجتماعية للمتغلبين من أهل السلطة والحكم ، مهما كانوا عليه من الفساد والظلم وأن يقبلوا كل ما يسامون به من الخسف والذل ويجعلوا عنايتهم كلها بالأمور الروحية ، وتربية العواطف والوجدانات النفسية ، واما الدين الإسلامى فهو القائم على أساس العقل والإستقلال ، المحققين لمعنى الإنسانية بالجمع بين مصالح الروح ومصالح الجسد ، وبهذا يصدق عليه قوله تعالى : (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ....) (١) وقوله تعالى : (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ...) (٢) فهى مبنية على اساس الإستقلال البشرى اللائق بسن الرشد ، وطور ارتقاء العقل ، ولذلك كانت الأحكام الدنيوية فى كتابها قليلة ، وفرض فيها الجهاد ، لأن الراشد يفوض إليه أمر نفسه فلا يقيد إلا بما يمكن أن يعقله من الأصول القطعية ، ومن مقومات أمته الملية ، التى لا تختلف باختلاف الزمان والمكان ومن فقه ما حققناه علم أن حجة الله تعالى اتمام الله الدين بالقرآن وختمة النبوة بمحمد (ﷺ) وجعل شريعته عامة دائمة – لا تظهر الا ببناء هذا الدين على أساس العقل وبناء هذه الشريعة على أساس الإجتهاد وطاعة أولى الأمر الذين هم جماعة أهل الحل والعقد فمن منع الإجتهاد فقد منع حجة الله تعالى ، وابطل مزية هذه الشريعة على غيرها ، وجعلها غير صالحة لكل الناس فى كل زمان ، فما أشد جناية هؤلاء الجهال على الإسلام ، على انهم يسمون انفسهم علماء الإسلام .

---

(١) سورة البقرة : بعض آية رقم : ١٤٣ .
(٢) سورة آل عمران : بعض آية ١١٠ .

(فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) أى فإذا كان الأمر كذلك فالواجب عليكم جميعا أن تبتدروا الخيرات وتسارعوا إليها لأنها هى المقصودة بالذات من جميع الشرائع ومناهج الدين ، فما بالكم أيها الناس تنظرون من الدين والشرع على ما به الخلاف والتفرق ، دون حكمة الخلاف ومقصد الدين والشرع ، أليس هذا هو ترك الهدى ، واتباع سبل الهوى ؟ فاستباق الخيرات هو الذي ينفع فى الدنيا والآخرة ، وإلى الله – دون غيره – ترجعون جميعا فى الحياة الثانية فينبئكم عند الحساب بحقيقة ما كنتم تختلفون فيه ، ويجزي المحسن بإحسانه ، والمسئ بإساءته . فعليكم أن تجعلوا الشرائع سببا لتنافس في الخيرات ، لا سببا للعداوة بتنافس العصبيات أ هـ .

ويقول الله عز وجل : (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) (١) ويقول أيضا : (يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) (٢) ويقول أيضا : (وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) (٣)

وقد تحمل الرسل كثيرا من عنت الكافرين . ولكن برغم ذلك التعنت لم يتهاونوا فى مواصلة تبليغ منهج الله عز وجل ، لأن من سنن الدعوات أن يلقى الدعاة كل ألوان الأذى والعذاب ، ويواجهون كل ذلك بالصبر والإيمان ، لأن الله لن يتخلى عنهم وهم بعد ذلك القدوة الطيبة والأسوة الحسنة للدعاة من بعدهم .

---

(١) سورة الشورى : آية رقم : ٨ .

(٢) سورة الأعراف : آية رقم : ٣٥ .

(٣) سورة الأنعام : آية رقم : ٤٨ .

قال تعالى : (وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ وَلَقدْ جَاءكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ) (١)

ويقول : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللّهُ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (٢)

(١) سورة الأنعام : آية رقم : ٣٤ .

(٢) سورة ابراهيم : آية رقم : ٤ .

رسالات الرسل ذات أصول واحدة

لا ريب أن الرسالات جميعا ذات اصول واحدة . وما اختلفت إلا فى مناهج البلاغ .. وترجع وحدة الأصل إلى أن المصدر لكل الرسالات بصفة عامة هو الله الذى أراد أن يوجه البشر إليه ويعرفهم طريق سعادتهم الكامنة فى دين الله الموحى به على السنه الرسل . ويرجع الإختلاف فى منهج البلاغ إلى تنوع المدعوين . واختلاف طبائعهم ورذائلهم وفكرهم مما يشير إلى ضرورة اختلاف المنهج ليكون الإيمان أسرع والإقتناع بالدعوة أعمق (١)

وهذه الأصول تتمثل فى :

أولا : توحيد الله عز وجل .

ثانيا : ضرورة الرسالة واثباتها .

ثالثا : اثبات البعث .

رابعا : اثبات أصول العبادات .

خامسا : الإهتمام بمكارم الأخلاق .

قبل أن نتكلم عن كل اصل من تلك الأصول نقول : إن المنهج(٢) الذى سلكه جميع الرسل فى تلك الأصول كان يهدف إلى اقتناع الناس بما جاء به الوحى معتمدين على دليلين .

---

(١) أصول الدعوة : تاليف د / احمد احمد غلوش – ص ١٧ بتصرف – ١٣٩٢ هـ – ١٩٧٩ م – مطبعة دار البيان . وانظر كذلك إلى الدعوة الإسلامية ووسائلها فى عصر النبى (ﷺ) للمؤلف ط/١ ١٩٧١ دار الجيل للطباعة – ١٤ قصر اللؤلؤ – الفجالة .

(٢) التعريف بكلمة منهج : بالنظر فى معاجم اللغة العربية – نجد أن كلمة منهج مشتقة من مادة نهج – ويدور معناها حول الطريقة التى تبلغ بها المادة المراد تبليغها للناس.

=يقول صاحب لسان العرب : (نهج - طريق نهج - بين واضح - وطرق نهج وسبيل ، منهج : كمنهج ومنهج الطريق : وضحه والنهاج كالمنهج وأنهج - الطريق وضح واستبان .(لسان العرب : لابن منظور : المجلد السادس : ص ٤٥٥٤ - مادة نهج - دار المعارف كورنيش النيل - القاهرة .

ويقول صاحب القاموس المحيط : النهج الطريق الواضح كالمنهج والمناهج ... وانهج وضح واوضح واستنهج الطريق صار منهجا ...)

القاموس المحيط : مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي : ت ٨١٧ هـ - ج١ - ص ٢١٨ - ط/٢ - ١٣٧١هـ - ١٩٥٢ . مصطفى البابي الحلبي .

تعريف المنهج عند علماء الدعوة :

يحدد بعض علماء الدعوة معنى المنهج في اصطلاحهم بانه الطريق الحامل للمادة أو المادة نفسها .

فإذا كان المراد بالمنهج المادة نفسها فيعرف على انه : الدعوة الإسلامية بجوانبها الثلاثة العقيدة والشريعة والأخلاق اى - الدين - وهو الكتاب والسنة (انظر : إلى منهج الإمام احمد بن حنبل فى الدعوة الاسلامية : ص ٧٤ بتصرف - الشيخ محمد سيد احمد عامر - رسالة ماجستير اشراف د / احمد غلوش رجب ١٣٩٩هـ - يونية ١٩٧٩ م)

واذا كان المراد بالمنهج الطريق الحامل للمادة أي الوسيلة التى انتشر بها المنهج السابق فيعرف على أنه : مجموعة القواعد التى يتكون منها اسلوب معين يلتزمه الداعية لنشر دعوته على حسب متطلبات عصره على شريطة أن لا يخرج عن إطار منهج الدعوة) فى القرآن الكريم وهو المشار اليه فى قوله تعالى : (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى احسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) سورة النحل : آية ١٢٥

ويؤيد ما نذهب اليه ما ذكره المفسرون فى تفسير قوله تعالى : (لكل جعلنا منكم شريعة ومنهاجا) سورة المائدة : آية ٤٨ - فيقولون بأن معنى كلمة منهج أو منهاج هو معنى مشترك بين الدين كمنهج وبين تبليغ الدين كمنهج يسير عليه فى تبليغه ، ويقول القرطبى : المنهج الطريق المستمر والمنهج دين محمد عليه الصلاة والسلام (الجامع لأحكام القرآن : لأبى عبد الله بن احمد الانصارى القرطبى - ت ٦٧٦ - ج٦ - ص ٢١١ ط/٣ - دار الكتاب العربى ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م القاهرة

العلاقة بين المعنيين : بالنظر الى معنيهما اللغوى والإصطلاحى لوجدنا علاقة واضحة بينهما فالمعنى اللغوى عام فى المادة والوسائل . والمعنى الاصطلاحى =